الفـــكر الكوفي المنحرف في خطاب الإمام علي (عليه السلام)

(دراسة تحليلية)

ا. د . عبد الحسن علي مهلهل
كلية الآداب / جامعة ذي قار

مقدمة البحث :

في الكوفة مركز الخلافة الإسلامية ، تعرض الإمام علي (عليه السلام) إلى ثقل مسؤولية الخلافة وعبئها الشديد على كاهله الشريف ، وذلك لظهور فكر مضاد يحمل نوايا لم تكن سليمة ، تسير في اتجاه مخالف لما يريده أمير المؤمنين (عليه السلام) ، ويرجوه من أجل بناء الدولة الإسلامية آنذاك ، لاسيما ، وقد ورث (عليه السلام) ممن سبقوه من الحكام مجتمعا معبئا بالأفكار والخطابات المنحرفة التي لا تمثل ثوابت الإسلام المحمدي السليم .

مثل ذلك الانحراف لم يكن وليد الساعة بل جاء بسبب طريقة بناء المجتمع الإسلامي في العهود التي سبقت أمير المؤمنين (عليه السلام) ، على مستوى التفكير الديني المنحرف الذي يؤدي بالضرورة إلى سلوكيات إنسانية غير صحيحة

لم يكن (عليه السلام) شديدا أو متعسفا مع رعيته بل ترك لهم حرية الاختيار في طريقة عيشهم وحياتهم ، لكنه (عليه السلام) لم يتخلف أو بقصر يوما عن تكليفه الشرعي في نصحهم أو ارشادهم أو توعيتهم نحو الخير والصلاح ، وتبيان طرق الحق.

مثل ذلك السلوك الإنساني الرؤوف جعل مثل تلك الأفكار المنحرفة تكشف عن لثامها فتسفر وجوها سوداء كانت سببا في معاناة أمير المؤمنين (عليه السلام) في الكوفة .

لقد كشف بعض المنحرفين عن نواياهم مستغلين تسامحه ورأفته (عليه السلام) كما أشرنا .

أمـا الأفكار المنحرفة ، فلم يستطع ذووها أن يعبروا عنها صراحة بشكل مباشر ، بل كشفها هو(عليه السلام) في خطبه وأحاديثه الموجهة إلى أهل الكوفة هناك ، مما يدل على ضجره وضيقه بسلوكهم المنحرف . وهو كشف لا تتلوه عقوبة .

وسوف نحاول في هذا البحث الكشف عن تلك الافكار المنحرفة التي تمثل (خطابا كوفيا مضادا أو مغايرا) لما كان يرجوه أمير المؤمنين أو يطمح إليه ، لكن القدر لم يمهله حتى يكمل مسيرته المُحمدية الإنسانية السليمة هناك .

الخطاب المنحرف :

عبر(عليه السلام) عن ذلك الانحراف تعبيرا بيانيا يدل على نمطية ذلك الخطاب وبنيته الخاصة ، وهو خطاب ((يمثل أيدولوجيا غايته الإخضاع غير القسري الذي لا يمكن أن تمارسه الخطابات الدكتاتورية أو تلك التي تصادر الرأي الآخر أو تسعى إلى مصادرته ، ولكنها تؤسس إلى عملية إقناع تنشأ أساسا على جذر من الصدق والممارسة العملية التي تتآلف مع المعتقد ، وبذلك فهي تهيئ لرسوخ غير مهدد بالقلق)) .

ينهض الخطاب المضاد في نهج البلاغة ليصبح ملمحا فكريا يمثل طائفة من المنحرفين الذين كانوا يمثلون الخط الثاني الذي صُنع في السنوات التي سبقت خلافته (عليه السلام)، وهي صنيعة أحكمت بإتقان من قبل صانعها وذلك من خلال ترسيخ كثير من الأفكار المنحرفة التي سادت في تلك المدة من حكم الذين سبقوه (عليه السلام).

ولم يكن ذلك الخطاب يُـوجه بشكل مباشر إلا في حالات نادرة ، بل كان خطابا غير مباشر يمكن للباحث أن يجده في خطب أمير المؤمنين (عليه السلام) وكتبه ورسائله الموجهة الى أهل الكوفة آنذاك من عماله ورعيته ، وهو خطاب يمثل الفكر الكوفي الشائع الذي يمثل أصحابه هناك أو يمثل معتقديه ، ولا يمنع أن يكون اغلب متبني هذا الفكر هم ممن كانوا في معسكر أمير المؤمنين (عليه السلام) ، بمعنى أن امير المؤمنين (عليه السلام) كان يدرك تماما أنذلك الفكر قد تسرب حتى إلى الذين هم في معسكره . ومن هنا نراه كثير الشكوى من ذلك الفكر الذي أثر على مسيرة بناء الدولة واستقرارها .

لقد وقف ذلك الفكر المضاد حجر عثرة امام تطلعات أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وهو فكر يعبر عن ثقافة المجتمع الكوفي ، وكثيرا ما كان فكرا مستفزا لأمير المؤمنين (عليه السلام) ينم عن قلة إدراك ذلك المجتمع للحكومة الإسلامية الصحيحة أو لطريقة بناء الدولة أو لإتباع السلوك الإنساني القويم .

وسوف يحاول الباحث الكشف عن لغة ذلك الفكر التي صاغها أمير المؤمنين(عليه السلام) بنفسه ، وهي من غير شك لغة بيانية تمثل فهمه لذلك الفكر ،ثم الكشف عن طريقة التعبير عنه ، فضلا عن بيان مشاعره تجاه ذلك الانحراف الفكري.

وسرعان ما كشف ذلك الفكر المنحرف عن نياته ـ التي حاول أن يضمرها أو يتستر عليها ـ بعد استشهاده (عليه السلام) ، فقد انفرط عقد المجتمع الكوفي عن الإمام الحسن (عليه السلام) ، مما اضطره للتنازل عن الخلافة لمعاوية لعلمه بانحراف ذلك الجمهور الذي كان معه .

لا شك أنَ خطاب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، لم يكن تـــرفا فكريا بل كان خطابا مقصودا لذاته ذا أهداف مختلفة على صعيد عملية التلقي برمتها . ومثله يؤكد تعدد الرؤى التي كانت سائدة آنذاك ، فضلا عن ذلك يشي بفسحة من الحرية الفكرية التي كان يمارسها رعية أمير المؤمنين (عليه السلام) ، ولا شك أن خطاب المضاد يمثل ممارسة ثقافية أو هاجسا مضادا للآخر ، مما يجعل تلك الحرية تصبح أمرا مؤلما على القائد هناك إذ لا يستطيع ـ رغم ما يمتلك من قدرات على مستوى العصمة أو الإنسانية ـ أن يمسك زمام المبادرة أمام عدوه، الأمر الذي جعل ذلك العدو في مرتبة التفوق ، لأنه يجيز لنفسه استعمال أساليب الترغيب والترهيب ، وهي أساليب منحرفة حتى أصبحت تلك الثقافة أو كادت أنْ تكون سلوكا جمعيا لأهل الكوفة آنذاك .

إنَ الخطاب في نهج البلاغة يتمثل في شكلين ، الشفاهي والكتابي ، أو المنطوق والمدون ، فالأول يدخل فيه كلام أمير الإمام في أشياء تخص الدولة وسياستها ، مضافا إليه ذلك الكلام الذي كان يقوله ؛ إما جوابا على سؤال قد يتعلق بالربط العقائدي بين القتال وبين شرعيته من وجهة النظر الإجبارية أو الاختيارية [١] .

ومهما يكن نمط الخطاب الموجه في نهج البلاغة ، أو نوع المتلقي الذي يقع عليـــه نمط ذلك الخطاب ، سواء أكان مواليا أو منحرفا ، فإنَ خطابه (عليه السلام) ؛ هو ((خطاب متعدد القيم ، لأن مماحكة بلاغية في أي نص ــ طال أم قصر ــ من نصوص نهج البلاغة تدلنا على ثراء صوري ذي معنى ممتد تتجاور فيه الأفكار وتتمازج وتتفاعل فتخرج بذهن المتلقي من دائرة التأثير المباشر إلى دائرة الاندماج المفاهيمي مع النص ،

ولا يمكن أن نقول أنَّ هذا الخطاب هو خطاب أحادي المعنى أو القيمة ، لأنه مليء بالأصوات المتناغمة مع الأفكار التي يتضمنها النص ، مما يجعلها تبرز بشكل نتوءات صارخة خلال النص)) [٢] .

مثل هذا الخطاب الموجه أي المقصود لذاته هو خطاب نلحظ فيه مراعاة المتلقي بشكل عجيب ، بمعنى جاء وفقا لمستويات التلقي فجاء متنوعا يدور في عوالم كثيرة ، فهو مثلما وصفه الشيخ محمد عبده بقوله ،((فتارة كنت أجدني في عالم تغمره من المعاني أرواح عالية في حلل من العبارات الزاهية ، تطوف على النفوس الزاكية ، وتدنو من القلوب ، توحي إليها رشادها ، وتقوم منها مرادها .....، وطورا كانت تتكشف لي الجمل عن وجوه باسرة، وأنياب كاشرة ، قد تحفزت للوثاب ، ثم انقضت للإختلاب فخلبت القلوب عن هواها ، وأخذت الخواطر دون مرادها))[٣] .

ثـــــم يعبر عن شديد اعجابه بمنتج النص قائلا ((وأحيانا كنت أشهد أن عقلا نورانيا لا يشبه خلقا جسدانيا ، فضل عن الموكب الإلهي واتصل بالروح الإنساني فخلعه عن غاشيات الطبيعة ، وسما به إلى الملكوت الأعلى))[٤] .

إنَّ مثل هذا الوصف الذي تحدث به الأستاذ محمد عبده لهو وصف جاء عن خبير بقيمة المفردة وأثرها وطريقة بنائها فضلا عن ذلك كله هو ((وصف ينبئ عن المستوى التأثيري الذي اضطلعت به عملية توصيلية مؤثرة ما زالت تتناغم مع فكر المتلقي حتى اللحظة ، وهذا متأت من أن صاحبه في المستوى الإبداعي ذاته في خطابه ــ الشفاهي والكتابي ـ لا فرق بينهما ، وفي سلطته النفسية على ذاته التي تتمثل كل ما تفوه به في سلوكيات وممارسات ، كانت تمثل الرؤية التي تنطلق منها إلى التعامل مع الآخر في شفافية مرهفة)) [٥] .

والغريب أنَّ الخطاب في نهج البلاغة يحمل صفتين ،هما من صفات النصوص الراقية التي أنتجها منشؤون مبدعون ، وأعني بهاتين الصفتين هما ،(الصدق الفني ، والصدق الواقعي) ، وهو بذلك نص فريد ،كما وُصفَ بقول أحد الباحثين بقوله فـ ((النص ينقل أفكاره بصدق تام)) [٦] .

يبدو أن أواصر التفاهم أوالقبول بين أمير المؤمنين (عليه السلام) وبين أغلب رعيته في الكوفة قد كان مفقودا أو كاد أن يكون كذلك ، فقد جرت العادة أن يطيع الجنود القائد الأعلى ، ولا يعصون له أمرا ، غير أنَّ الأمر كان مختلفا معه (عليه السلام

كان سلوك أهل الكوفة ليس سويا ، ويبدو الانحراف فيه واضحا ، ويظهر التخاذل عندهم جليا لا يحتاج إلى تتبع أو تدقيق ، ولقد صور (عليه السلام) ذلك التخاذل تصويرا يدل على أمرين :

الأول : معرفته الدقيقة بأحوالهم ، وميلهم النفسي عنه .

الثاني : تبنيه (عليه السلام) عملية بناء الخطاب بشكل يدل على امكانية فنية بيانية عالية من منشئ الخطاب بطريقة تكون عملية انتاج ذلك الخطاب من قبل المنشئ أولا ، وفهمه من قبل المتلقي ثانيا ، إذ تشكل تكلك العملية ((مظهرين لعملية واحدة وإنْ اختلفا في الحدوث من حيث تبادل الأدوار التخاطبية ما بين المتكلم والسامع)) (٧).

يقول(عليه السلام) مخاطبا أهل الكوفة :

((أُف لكم ! لقد سئمتُ عتابكم . أرضيتُم بالحياة الدنيا من الآخرة عِوضا ؟ وبالذل من العز خلفا ، إذ دعوتُكم إلى جهاد عدوكم ، دارتْ أعينكم كأنكم من الموت في غمرة ، ومن الذهول في سكرة ، يُرتجُ عليكم حواري فتعمهون ، فكأنَّ قلوبكم مألوسة ، فأنتم لا تعقلون ، ما أنتم لي بثقة سجيس الليالي ، وما أنتم بركن يُمالُ بكم ، ولا زوافر عز يُفتقرُ إليكم ، ما أنتم إلا كإبل ضلَّ رُعاتها ، فكلما جُمعتْ من جانب ، انتشرتْ من جانب آخر. لبئس لعمر الله سَعْرُ نارِ الحرب أنتم ، تكادون ولا تكيدون ، وتنتقض أطرافكم فلا تمتعضون ، لا يُنام عنكم وأنتم في غفلة ساهون ، غُلب ، واللهِ المتخاذلون ، وأيم الله إني لأظن بكم أنْ لو حَمِس الوغى ، واستحر الموتُ ، قد انفرجتم عن أبي طالب انفراج الرأس ، ولله أمرأ يُمَكِّنُ عدوه من نفسه ، يَعرُقُ لحمه ،ويهشم عظمه ، ويفري جلده ، ضعيفٌ ما ضُمَتْ عليه جوانح صدره ، أنتَ فكن ذاك إنْ شئتَ فأما أنا فوالله دون أنْ أُعطي ذلك ضربٌ بالمشرفية يطيح منه فراشُ الهام ، وتطيح السواعدُ والأقدامُ ، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاءُ))(٨) .

إنً تذمر أمير المؤمنين (عليه السلام) من الكوفيين كان واضحا في هذه الخطبة الشريفة ، وهو تذمر يدل على انحرافهم عقائديا، وعدم التزامهم بـأوامره (عليه السلام) ، وهو إمامهم وخليفتهم الذي وجبت طاعته عليهم . وليس هناك انحرافا أكثر من ترك جهاد العدو الذي فرضه الله تعالى على المسلم ، وهو انحراف يدل على حبهم للحياة الدنيا الزائلة ، وتفضيلها على الآخرة بكل نعيمها السرمدي ، جزعا من الموت ،وخوفا منه . ومن أجل بيان ذلك الجزع ؛ فقد شبه حالهم بحال المحتضر الذي يعاني سكرات الموت الذي لا يستطيع دفعه عنه ، إذ يقول (عليه السلام) : ((دارت أعينُكم ، كأنكم من الموت في غمرة ، ومن الذهول في سكرة)) .

أعينهم مضطربة جزعا من شدة الموت ، وأبصارهم مذهولة ، وهو في ذلك يشير لــقوله (تعالى) ـ في تصوير مثل تلك الحال ــ ((ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت)) [٩] . ويصفهم أيضا بالتردد والتراجع عن قبول رأيــه ، فضلا عن ذلك ، فإنً قلوبهم ((مألوسة)) ، أي مسها شيء من الجنون ، فلم تعــد هادئة بل مضطربة ، والأغرب من ذلك كله أنً هؤلاء القوم ليسوا ثقة يمكن أن يكونوا يوما محل اطمئنانه (عليه السلام) .أو يكونوا ركنا يلجأ إليه في الشدة والنوائب ، ولم يكونوا يوما يمنعون عدوهم من حقهم ، ولــيسوا رجال حرب ، فهم ضعفاء تُغتصب حقوقُهم امام أعينهم ، عدوُهم ليس غافلا عنهم ، يترقبهم ، ولا يترقبونه ، كل ذلك يدل على تخاذلهم واستسلامهم له، فهم مغلوبون لا محال ، والأشد من ذلك ،أنً أمير المؤمنين (عليه السلام) ، يتوقع تخليهم عنه إذا اشتدت الحرب ، فيوشكون أنْ يسلموه للعدو ، ويشبه ذلك الأمر يقوله : ((إني أظنُ بكم أنْ لو حمس الوطيس ، واستحر الموت انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج الرأس)) . أي ، ((انفراجا لا التئام له بعده ، فأن الرأس إذا انفرج عن البدن أو انفرج أحد شقيه عن الآخر لم يعد للإلتام)) [١٠] .

ولــــيس هناك أكثر من انحرافهم وميلهم عن الصواب من قوله في تأنيبهم: ((... وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة والنصيحة في المشهد والمغيب ، والإجابة حين أدعوكم ، والطاعة حين آمركم)) .

لقد كان انحرافهم عن أوامره (عليه السلام) قد تسبب في خسارته لحرب صفين ، إذ أوشك (عليه السلام) أن يهزم معاوية وجنده لولا خديعة عمرو بن العاص ، وتخاذل أبي موسى الأشعري الذي أدى إلى قبوله التحكيم مرغما ، وهو (عليه السلام) يدرك أنَّ المنافقين في عسكر سوف يستغلون ذلك لتخرج الأمور عن السيطرة وتحويل النصر إلى هزيمة . لقد أمير المؤمنين (عليه السلام) ناصحا لأتباعه ، مشفقا عليه ، لكنهم عصوا أوامره ،وهو الخبير المجرب ، فأورثهم هذا التصرف حسرة وندامة ، وفي ذلك الانحراف عن منهجه (عليه السلام) يقول :

((أما بعدُ فإنَّ معصية الناصح الشفيق العالم المجرب ، تورث الحسرة وتعقب الندامة ، وقد كنتُ أمرتكم في هذه الحكومة أمري ، ونخلتُ لكم عن مخزون رأيـي ، ولو كان يطاع لقصير أمـرُ)) (١١).

ثم يقول (عليه السلام) في بيان عنادهم وخلافهم ، ((فأبيتم عليَّ إباء المخالفين الجفاة ، والمنابذين العُصاة ، حتى ارتاب الناصحُ بنصحه ، وضنَّ الزندُ بقَدحه ، فكنتُ وإياكم كما قال أخو هوازن :

أمرتُكم أمري بـمُنعرج اللـوى فلم تستبينوا النُّصحَ إلا ضحى الغـد (١٢)

لقد وظف (عليه السلام) المثل والشعر لاتصالهما بقصة يعرفها المتلقي ، ويدرك مضمونها، فالشعر كما يقول (جان كوهن) : ((إنَّ للشعر قوة ثابتة للغة ، وطاقة سحر ، وافتنان)) (١٣) .

أما المثل العربي فهو مورد آخر امتاح منه الإمام الصورة فأدخلها خطبه ، وهي كثيرة وذلك بسبب الفتن التي عاشها الإمام ، وما تستبع من جدل وصراع وشبهات وحجاج ، يقتضى فيه الاستشهاد بالمثل لتأييد مزعم أو لتوضيح معنى لأن الإتيان بالمثل بعد استقرارها في النفوس حجة للمتكلم على السامع (١٤)، لأن ،((المثل يتحدث عن الحاجة الشخصية في ثوب انساني عام)) (١٥) .

إن الإمام علي (عليه السلام) لا يتوانى عن استعمال أسلوب الذي يراه نافعا للمخاطب ، كلما استدعى الأمرُ ذلك ،لا سيما إذا سلمنا أن هذا الشعر قد حققا شيوعا عند الجماهير آن ذاك ، فلم يعد المعنى والمقصود خافيا عنهم لا في الدلالة ولا في السياق

، مما هيأ لهذا التوظيف أن يدخل في دائرة التعالق النصي ، وهنا يأتي دور المنشئ في تلقي هذه النصوص ثم توظيفها جماليا ودلاليا [١٦].

والبيت للشاعر الجاهلي ، دريد بن الصمة ، وهو من قصيدة يرثي بها أخـــاه (عبدالله) ، وكان ـ من سبب مقتل أخيه وهزيمة قومه ـ هو فوات فرصة النصــح ، لعصيانهم قائدهم ، وعدم سماع رأيه ، وتجاهل خبرته ، الأمر الذي أدى إلى فوات فرصة النصر وضياعها منهم ، ثم ـ بعد ذلك ـ استبان لقومه جهلهم ، وصواب رأيه [١٧] .

إنَّ مستهل الخطبة الشريفة جاء مؤكدا بما يناسب حال المخاطبين ، ومضمون الخطاب الموجه لهولاء الناس ، بمعنى أن المخاطب هو الذي يحدد شكل الخطاب وقوته ، فقد جاء التوكيد فيه لإزالة الشك والإنكار من ذهن الجمهور الذين تواطأ أغلبهم على عدم قبول النصح منه ، وهو يومئذ قائدهم الذي يجب ان يطيعوا له ويسمعوا، ولكن فسحة الحرية التي أتاحها لهم ، قد أفسدت عليه نصحه ومشورته لهم . ومثل هذا النص يمثل تعبيرا وافيا عن الإحجام الذي تلقاه أمــير المؤمنين (عليه السلام) من جمهوره الكوفي آنذاك ، فـ ((على الرغم من تلك الكفاية النصية ؛ فقد ضمنه بيتا شعريا يحمل المعنى نفسه ، أو يكون مكملا له ، وهو نص يكشف عن مدى الانتهاك الذي تعرض له رأي أمير المؤمنين (عيله السلام) من جمهوره)) [١٨] .

فـــما أشبه حال أمير المؤمنين (عليه السلام) مع المخالفين والمعاندين له بحال الشاعر الجاهلي (دُريد بن الصمة) ، صاحب الشعر ، مـــع قبيلته ، أي ((أنهم أجمعوا على مخالفته حتى شك في نصيحته ، وظنَّ أن النصح غير نصح ، وأنَّ الصواب ما أجمعوا عليه ، وتلك سنة البشر إذا كثر المخالف للصواب أتـــهم المصيب نفسه)) [١٨].

كما ضمن (عليه السلام) نصه ـ آنف الذكر ـ مثلا مشهورا ، وهو (لـــو يُطاع لقصير أمــرُ) ، وقــصة هذا المثل معلومة للمخاطب ، ولا تخفى دلالته على الذائقة العربية آنذاك ، وهي أنَّ قصيرا هذا هو ، ((مولى جذيمة المعروف بالأبرش ، وكان حــاذقا ، وقد أشار على سيده أنْ لا يأمن الزباء ، ملكة الجزيرة ، فخالفه ، وقصدها ، إجابة لدعوتها إلى زواجه فقتلته ، فقال قصير : لا يطاع لقصير أمر ، فذهب مثلا)) [١٩] .

ويقول (عليه السلام) فـــــي ذم المتقاعدين عن القتال من أهــل الكوفة : ((مـُنيتُ بمن لا يطيع إذا أمرتُ ، ولا يُجيب إذا دعوتُ ، أقوم فيكم مستصرخا ، وأناديكم مُـتغوثا ، فلا تسمعون لي قولا ، ولا تطيعون لي أمرا، حتى تكشفَ الأمورُ عن عواقب المساءة ، فما يُـدرك بكم ثأرٌ، ولا يُـبلغ بكم مرامٌ ، دعوتكم إلى نصر إخوانكم ، فجرجرتُـــم جرجرة الجمل الأسـر، وتثاقلتم تثاقل النضو الأدبر ، ثم خرج إليَّ منكم جـُنيد متذائب ضعيف ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون)) [٢٠] .

هذا الكلام خطب به أمير المؤمنين (عليه السلام) عندما أغار النعمان بن بشير الانصاري على احدى بلدات الكوفة ، وحينها انتدب (عليه السلام) الناس في الكوفة للرد على تجاوزات معاوية بن أبي سفيان ، غير أنه لم أذنا صاغية منهم ، فوجد نفسه مبتليا بهذا الصنف من الناس لا يطيعونه إذا أمر ، ولا يجيبونه إذا دعا ،تخلوا عن نصرة إمامهم ، وتلبية دعوة ربهم . ويبدو واضحا انحرافهم عن توجيهاته ودعواته ، وليس أدل على ذلك تخاذلهم مـــــن قوله : ((فما يدرك بكم ثأر، ولا يبلغ بكم مرام .....)) ، فهم قوم متثاقلون ، متكاسلون ، يشبهون الجمل المصاب بداء السرور أو الجمل المهزول ، المجروح الذي يتثاقل في مشيته ، لا يقوى على النهوض .

أما وصفهم بقوله : ((ثم خرج إليَّ منكم جُنــيد ....)) ؛ فقد قال عنه الشريف الرضي : ((متذائب أي مضطرب ، من قولهم : تذاءبت الريح ،أي اضطربت هبوبها ، ومنه سُمي الذئب ذئبا لاضطرابه في مشيته)) [٢١] .

إن تصغير كلمة (جُنيد)، ((حمل السامع على تصور أولئك المتخاذلين ،وما هم عليه من خور ، فقد جاء التصغير على سبيل الامتهان والتحقير ، لأن كلمـــــة (الجند) قد تحدث في النفس جلَبَة وفزع المقاتل)) [٢٢] ، والتصغير كما يرى ابن سنان الخفاجي لا يأتي في كلام العرب إلا لنفي التعظيم [٢٣] .

ويصف (عليه السلام) تخاذل أصحابه الكوفيين آنذاك وانحرافهم عن خطه الجهادي على العكس من أصحاب معاوية يجتمعون على الباطل ثم تفرق أصحابه عنه على الرغم من تمسكه بالحق ، وثباته عليه . ولقد كان العصيان عندهم صفة تكاد تكون ملا زمة لأهل الكوفة آنذاك ،إذ يقــول: ((وإني والله لأظن أنَّ هؤلاء القوم سيدالون منكم

باجتماعهم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم، وبمعصيتكم إمامكم في الحق، وطاعتهم إمامهم في الباطل ، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم، وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم. فلو ائتمنتُ أحدكم على قَـعْب لَـخشيتُ أنْ يذهب بعِلاقته)) (٢٤).

ويبدو أمير المؤمنين (عليه السلام) قد يئس من نصرة أصحابه على عدوه ، وذلك لانحرافهم عن منهجه القويم فلم يتمسكوا به ، وهو دائم التوبيخ لهم لضعفهم وعجزهم عن الصمود بوجه الباطل . يقول في ذلك :

((كم أداريكم كما تُدارى البِكارُ العمِدَةُ ، والثيابُ المتداعية ، كلما حِيصت من جانب تهتكتْ من جانب آخر، أكلما أطلَّ عليكم مَنسرٌ من مناسر أهل الشام ، أغلق كل رجل منكم بابه ، وانجحر انجحار الضَّبة والضَّبعُ في وجارها . الذليل واللهِ من نصرتُموه ، ومن رُمي بكم فقد رُمِي بأفوقَ ناصلٍ، وإنكم والله لكثير في الباحات ، قليل تحت الرايات)) (٢٥) .

إنَّ نصا ثريا مثل نهج البلاغة يتمتع بجمالية شعرية عالية ، لسوف ينبئ القارئ عن وجوب تسلحه بقدرة تحليلية عالية أيضا ، ومن هنا فإنَّ ((الإبداع هو فن المغامرة الجمالية ، ويتجلى بأعنف صورة في العملية الشعرية التي تعبر عن فعل اختراقي من طراز رفيع)) (٢٦) .

ويبدو ثراء النص آنف الذكر في تصوير أمير المؤمنين (عليه السلام) لذلك الانحراف في استعماله هذا الاستفهام الذي يحمل معنى التحسر والتأسف لذلك الانحراف ؛ فهو (عليه السلام) يشبه ذلك الانحراف بالإبل التي انفضح سنامها من الداخل ، الذي يبدو للناظر صحيحا، ولكنه نحل وخرم من كثرة الركوب، فهم أي (أصحابه) على الظاهر يبدون أصحاء غير أنَّ أنفسهم تنطوي على مرض النفاق . وهم أيضا يشبهون الثياب البالية ،(الخَلِقة المُتخرقة) التي كلما حاول صاحبها أن يداريها بالرفق التام تمزقت ، إذ لا ينفع ذلك الترفق معها .

أما جُبنهم عن ملاقاة عدوهم ، فهو لا يخفى على أحد لكثرة تخاذلهم أمام أهل الشام ، فكلما طلعت عليهم قطعة من جيش الشاميين لاذوا في بيوتهم كأنَّهم الضِّبُع المذعورة التي تهرب خوفا من عدوها إلى جحرها .

ولا يمكن الوثوق بهم وقت الملمات ، لأنه من الضعف والعجز ما يشبه الرامي الذي يرمي بسهم(ناصل) ،أي عار من النصل، والسهم إذا كان مكسور الفوق ، أي (موضع الوتر) لم يؤثر في الرمية ، فهم في ضعف أثرهم وعجزهم عن النكاية بعدوهم أشبه به [٢٧] .

إنً شيوع ثقافة التخاذل لهي أهم سمات ذلك الانحراف عند أغلب أصحابـــــه (عليه السلام) ، في الكوفة آنذاك ، إنما يدل على فشلهم في استيعاب الحرية التي وهبها الإمام لهم ، فقد حاول أن يبني ذلك الإنسان الكوفي بناء اسلاميا صحيحا بمنهج اسلامي صائب غير منحرف ، ولكن يبدو أنً سبب ذلك الانحراف الذي انطوت عليه نفوس الكوفيين هو تشبعهم بما ورثوه من الحكام الذين سبقوا أمير المؤمنين في إدارة الدولة من سلوكيات الانحراف وعاداته ، فضلا عن انشغاله بالحروب والفتن التي ظهرت في عهده ، لاسيما فتنة الناكثين والخوارج فضلا عن تمرد معاوية في الشام الذي أرهق الدولة اقتصاديا ونفسيا واجتماعيا .

خاتمة البحث :

مما تقدم تبين لي أن الفكر الكوفي المنحرف قد شاع في عهد الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) ، ولم يستطع أن يغير من توجهات الكثير منهم ، لأن الانحراف قد تمكن من نفوسهم ، بسبب ميلهم عن الدين القويم ، فضلا استغلالهم فسحة الحرية التي وهبها لهم ، وعدم استعمال القوة والتعسف معهم على العكس من بقية الحكام السابقين لعهده (عليه السلام) ، الذين استعملوا بالإضافة لذك الإغراء وشراء الذمم. لقد جسد امير المؤمنين ذلك الانحراف من خلال خطبه التي ألقاها في الكوفة آنذاك تجسيدا فنيا من خلال تنوع التعبير البياني والأسلوبي فيها .

هوامش البحث :

(١) ـ ينظر : الخطاب في نهج البلاغة ـ بنيته وأنماطه ومستوياته ـ د . حسين العمري : ١٥ .

(٢) ـ المصدر نفسه : ٢٠ .

(٣) ـ شرح نهج البلاغة ، المقدمة : ب .

(٤) ـ شرح نهج البلاغة ، المقدمة : ج .

(٥) ـ الخطاب في نهج البلاغة ، د. حسين العمري : ٢٣ .

(٦) ـ علي بن أبي طالب (سلطة الحق) ، عزيز السيد جاسم : ٢٨٥ .
(٧) ــ النص والخطاب ــ مباحث لسانية عرفانية ـ د. الأزهر الزناد : ٢٠١ .
(٨) ـ نهج البلاغة ، شرح الشيخ محمد عبده ، تحقيق فاتن محمد خليل :١/ ٧٩ .
(٩) ـ سورة محمد / ٢٠ . وينظر : نهج البلاغة (مصدر سابق) ، الهامش : ٧٧/١.
(١٠) ـ نهج البلاغة (مصدر سابق) : الهامش : ٧٧ .
(١٢) ـ ينظر شرح نهج البلاغة (مصدر سابق) : ١/ ٧٩ .
(١٣) ـ اللغة العليا ، جان كوهين :
(١٤) ـ ينظر التصوير البياني في خطب الإمام علي (ع) ، د. عباس علي الفحام : ١٩٣ .
(١٥) ـ الأمثال العربية القديمة ، رودلف زلهايم :٢٥ .
(١٦) ـ الاقتباس والتضمين في نهج البلاغة ، د. كاظم المولى (أطروحة دكتوراه) : ١٦٣ .
(١٧) ـ شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ٢ / ٢٠٤ .
(١٨) ـ توظيف الإمام علي (ع) للشعر في نهج البلاغة ، (بحث) : ١٤ .
(١٩) ـ شرح نهج البلاغة (محمد عبده) :١/ ٧٩ .
(٢٠) ـ المصدر نفسه : المكان نفسه .
(٢١) ـ المصدر نفسه : ٨٣/١ .
(٢٢) ـ المصدر نفسه : المكان نفسه .
(٢٣) ـ التصوير الفني في خطب نهج البلاغة (مصدر سابق) : ٦٥ .
(٢٤) ينظر سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي : ٨١ .
(٢٥) ـ شرح نهج البلاغة (محمد عبده) : ١ / ١٠٦ ـ١٠٧ .
(٢٦) ـ المغامرة الجمالية للنص الشعري ، د. محمد صابر عبيد : ١٠٦ ـ ١٠٧ .
(٢٧) ـ ينظر شرح نهج البلاغة (مصدر سابق) : ١ / ١٠٧ .

مصادر البحث :

ــ القرآن الكريم .

ــ الاقتباس والتضمين في نهج البلاغة ، أطروحة دكتوراه ، كاظم فريح المولى ، جامعة البصرة ، ٢٠٠٧ م .

ــ الأمثال العربية القديمة ، رولف زلهايم ، ترجمة رمضان عبد التواب ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧١.

ــ التصوير البياني في خطب نهج البلاغة ، د. عباس علي الفحام ، ط١ ، مؤسسة الصادق الفنية ، النجف الأشرف ، ٢٠١٢ .

ـ توظيف الإمام علي للشعر في نهج البلاغة (بحث) ، د. عبدالحسن علي مهلهل ، د. عادل راضي الزركاني ، مجلة أوروك ، العدد الأول ، المجلد التاسع ، جامعة المثنى ، ٢٠١٦ .

ـ الخطاب في نهج البلاغة ، بنيته وأنماطه و مستوياته ـ دراسة تحليلية ، د. حسين العمري ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، دار الكتب العلمية ، ٢٠١٠ .

ـ سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ، تعليق عبد المتعال الصعيدي ، القاهرة ، مصر ، ١٩٥٢ ـ شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

ـ شرح نهج البلاغة ، محمد عبده ، تعليق فاتن محمد خليل ، بيروت ، لبنان ،(د.ت).

ـ علي بن أبي طالب ، (سلطة الحق) ، عزيز السيد جاسم ،مؤسسة الزمان للنشر ، (د.ت) .

ـ اللغة العليا ، جان كوهين ، ترجمة أحمد درويش ، المجلس الأعلى للثقافة والفنون ، القاهرة ، ١٩٩.

ـ المغامرة الجمالية للنص الشعري ، د. محمد صابر عبيد ، ط١ ، منشورات دار عالم الكتب ، الأردن ، ٢٠١٠ .

ــ النص والخطاب ـ مباحث لسانية عرفانية ، د. الأزهر الزناد ، ط١ ، بغداد ، ٢٠١٤.